هكذا لفظه ـ فرشوا لنا الشقاف[1] تحت حوافر دابتي وحكموني في أموالهم ونسائهم ولم يعصوني فيما آمرهم به ، وأنا لا أعرف صنعة ولا أحفظ قرآناً ولا نحواً ولا فقهاً ، فلو أسلمت لدرت في الأسواق أتكفف الناس ، فمن الذي يطيب نفساً بهذا ؟! فقلت : هذا لا يكون ، وكيف تظن بالله أنك إذا آثرت رضاه على هواك يخزيك ويذلك ويحوجك ؟! لو فرضنا أن ذلك أصابك فما ظفرت به من الحق والنجاة من النار ومن سخط الله وغضبه فيه أتم العوض عما فاتك ، فقال : حتى يأذن الله ، فقلت : القدر لا يحتج به ، ولو كان القدر حجة لكان حجة لليهود على تكذيب المسيح وحجة للمشركين على تكذيب الرسل ، ولاسيما أنتم تكذبون بالقدر فكيف تحتج به ؟! فقال : دعنا الآن من هذا وأمسك .

الخامس : أن جوابك في نفس سؤالك فإنك اعترفت أن عبد الله بن سلام وذويه كانوا قليلين جداً وأضدادهم لا يحصون كثرة ، ومعلوم أن الغرض الداعي لموافقة الجمهور الذين لا يحصون كثرة وهم أولوا القوة والشوكة أقوى من الغرض الداعي لموافقة الأقلين المستضعفين . والله الموفق .

فصـــل

[السؤال السادس]

قال السائل : « **تدخل علينا الريبة من جهة عبد الله بن سلام وأصحابه ، وهو أنكم قد بنيتم أكثر أساس شرائعكم في الحلال والحرام والأمر والنهي على أحاديث عوام من الصحابة الذين ليس لهم بحث في علم ولا دراسة ولا كتابة قبل مبعث نبيكم ، فابن سلام هو وأصحابه أولى أن يؤخذ بأحاديثهم ورواياتهم ، لأنهم كانوا أهل علم وبحث ودراسة وكتابة قبل مبعث نبيكم وبعده ، ولا نراكم تروون عنهم من الحلال والحرام والأمر والنهي إلا شيئاً يسيراً جداً ، وهو ضعيف عندكم** » اهـ .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا بهت من قائله ، فإنَّا لَمْ نَبْنِ أساس شريعتنا في الحلال والحرام والأمر والنهي إلا على كتاب ربنا المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، الذي تحدى به الأمم كلها على اختلاف علومها وأجناسها وطبائعها وهو في غاية الضعف ، وأعداؤه أطبقوا الأرض أن يعارضوه بمثله فيكونوا أولى بالحق منه ويظهر كذبه وصدقهم فعجزوا عن ذلك .

فتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ، فتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله

---

(١) الشَّقَف : الخَزَف . أو مُكَسَّره . واحدته : شقفه .

فعجزوا ، هذا وأعداؤه الأدنون إليه أفصح الخلق وهم أهل البلاغة والفصاحة واللسن[1] والنظم والنثر والخطب وأنواع الكلام ، فما منهم من فاه فى معارضته ببنت شفة ، وكانوا أحرص الناس على تكذيبه وأشدهم أذى له بالقول والفعل والتنفير عنه بكل طريق .

فما نقل عن أحد منهم سورة واحدة عارضه بها ؛ إلا مسيلمة الكذاب[1] بمثل قوله : « يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى كم تنقين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » ، ومثل : « والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، إهالة وسمناً »[3] وأمثال هذه الألفاظ التى هى بألفاظ أهل الجنون والمعتوهين أشبه منها بألفاظ العقلاء .

فالمسلمون إنما بنوا أساس دينهم ومعالم حلالهم وحرامهم على الكتاب الذى لم ينزل من السماء كتاب أعظم منه ، فيه بيان كل شىء وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة وشفاء لما فى الصدور ، به هدى الله رسوله وأمته فهو أساس دينهم .

الثانى : أن قولكم : « إن المسلمين بنوا أساس دينهم على رواية عوام من الصحابة » من أعظم البهت وأفحش الكذب ، فإنهم وإن كانوا أميين فمذ بعث الله فيهم رسوله زكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وفضلهم فى العلم والعمل والهدى والمعارف الإلهية والعلوم النافعة المكملة للنفوس على جميع الأمم ، فلم تبق أمة من الأمم تدانيهم فى فضلهم وعلومهم وأعمالهم ومعارفهم .

فلو قيس ما عند جميع الأمم من معرفة وعلم وهدى وبصيرة إلى ما عندهم لم يظهر له نسبة إليه بوجه ما ؛ وإن كان غيرهم من الأمم أعلم بالحساب والهندسة ، والكم المتصل والكم المنفصل ، والنبض والقارورة والبول والقسطة[4] ، ووزن الأنهار ونقوش الحيطان ، ووضع الآلات العجيبة ، وصناعة الكيمياء ، وعلم الفلاحة ، وعلم الهيئة ، وتسيير الكواكب ، وعلم الموسيقى والألحان ، وغير ذلك من العلوم التى هى بين علم لا ينفع وبين ظنون كاذبة ، وبين علم نفْعُه فى العاجلة وليس من زاد المعاد . فإن أردتم أن الصحابة كانوا عواماً فى أصل العلوم فنعم إذاً « وتلك شكاة ظاهرة عنك عارها » وإن أردتم أنهم كانوا عواماً فى العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ودينه وشرعه وتفاصيله واليوم الآخر وتفاصيله وتفاصيل ما بعد الموت وعلم سعادة النفوس وشقاوتها وعلم صلاح القلوب وأمراضها فمن بهت نبيهم

---

(١) اللِّسْن : اللغة . يقال : لكل قوم لِسْنٌ .

(٢) انظر تفاصيل خروجه على النبى ﷺ وصفة مقتله فى عهد الصديق . السيرة النبوية لابن هشام [٤/٤٢٥ - ٤٢٦ ، ٤٤٣ - ٤٤٤] والبداية والنهاية لابن كثير [٥/٤٨ - ٥٢ ، ٦/٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٦/٣٦٤ - ٣٦٨] .

(٣) انظر البداية والنهاية [٦/٣٦٧ ، ٣٦٨] وإعجاز القرآن للباقلانى بهامش الإتقان للسيوطى [٢/٦ - ٨] .

(٤) القِسْطَةُ : المقدار فى الماء وغيره - والميزان .

بما بهته به وجحد نبوته ورسالته التى هى للبصائر أظهر من الشمس للأبصار لم ينكر له أن يبهت أصحابه ويجحد فضلهم ومعرفتهم ، وينكر ما خصهم الله به وميزهم على من قبلهم ومن هو كائن من بعدهم إلى يوم القيامة ؟! وكيف يكونون عواماً فى ذلك وهم أزكى الناس فطرة وأزكاهم نفوساً ، وهم يتلقونه غضاً طرياً ومحضاً لم يشب عن نبيهم ، وهم أحرص الناس عليه وأشوقهم إليه ، وخبر السماء يأتيهم على لسانه فى ساعات الليل والنهار والحضر والسفر ، وكتابهم قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين ، وعلم ما كان من المبدأ والمعاد ، وتخليق العالم وأحوال الأمم الماضية ، والأنبياء وسيرهم وأحوالهم مع أممهم ، ودرجاتهم ومنازلهم عند الله ، وعددهم ، وعدد المرسلين منهم ، وذكر كتبهم ، وأنواع العقوبات التى عذب الله بها أعداءهم ، وما أكرم به أتباعهم ، وذكر الملائكة وأصنافهم وأنواعهم وما وكلوا به واستعملوا فيه ، وذكر اليوم الآخر وتفاصيل أحواله ، وذكر الجنة وتفاصيل نعيمها والنار وتفاصيل عذابها ، وذكر البرزخ وتفاصيل أحوال الخلق فيه ، وذكر أشراط الساعة والإخبار بها مفصلاً بما لم يتضمنه كتاب غيره من حين قامت الدنيا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، كما أخبر به المسيح عنه من قوله فى الإنجيل وقد بشرهم به فقال : « وكل شىء أعده الله تعالى لكم يخبركم به » وفى موضع آخر منه : « ويخبركم بالحوادث والغيوب » ، وفى موضع آخر : « ويعلمكم كل شىء » ، وفى موضع آخر منه : « يحيى لكم الأسرار ، ويفسر لكم كل شىء ، أجيئكم بالأمثال وهو يجيئكم بالتأويل » ، وفى موضع آخر : « إن لى كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكنكم لا تستطيعون حمله ، لكن إذا جاء روح الحق ذلك يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم جميع ما للآب »[1] .

فمن هذا علمه بشهادة المسيح وأصحابه يتلقون ذلك جميعه عنه وهم أزكى الخلق وأحفظهم وأحرصهم ، كيف تدانيهم أمة من الأمم فى هذه العلوم والمعارف ؟! ولقد صلى رسول الله ﷺ يوماً صلاة الصبح ثم صعد المنبر فخطبهم حتى حضرت الظهر ، ثم نزل فصلى وصعد فخطبهم حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى وخطبهم حتى حضرت المغرب ، فلم يدع شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرهم به ، فكان أعلمهم أحفظهم .

وخطبهم مرة أخرى خطبة فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، وقال يهودى لسلمان : لقد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخراءة ! قال : أجل[2] . فهذا اليهودى كان أعلم بنبينا من هذا السائل وطائفته !!

---

(١) كل هذه الأقوال سبقت مع تحقيق لها .

(٢) صحيح . مسلم فى الطهارة . باب الاستطابة [٥٧ ، ٥٨] والخراءة : اسم لهيئة الحدث ، وأما نفس الحدث فبحذف التاء وبالمد ، مع فتح الخاء وكسرها .

الصحابة وفضلهم ، والعلماء ومنزلتهم

وكيف يدعى فى أصحاب نبينا أنهم عوام وهذه العلوم النافعة المبثوثة فى الأمة على كثرتها واتساعها وتفنن ضروبها إنما هى عنهم مأخوذة ومن كلامهم وفتاويهم مستنبطة ، وهذا عبد الله بن عباس كان من صبيانهم وفتيانهم وقد أطبق الأرض علماً وبلغت فتاويه نحواً من ثلاثين سفراً ، وكان بحراً لا ينزف لو نزل به أهل الأرض لأوسعهم علما وكان إذا أخذ فى الحلال والحرام والفرائض يقول القائل لا يحسن سواه فإذا أخذ فى تفسير القرآن ومعانيه يقول السامع لا يحسن سواه ، فإذا أخذ فى السنة والرواية عن النبى ﷺ يقول القائل لا يحسن سواه ، فإذا أخذ فى القصص وأخبار الأمم وسير الماضين فكذلك ، فإذا أخذ فى أنساب العرب وقبائلها وأصولها وفروعها فكذلك ، فإذا أخذ فى الشعر والغريب فكذلك .

قال مجاهد : العلماء أصحاب محمد ﷺ ، وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبأ : ٦] ، قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، لما حضر معاذاً الموت قيل له : أوصنا ، قال : أجلسونى ، فأجلسوه فقال : إن العلم والإيمان بمكانهما من اقتفاهما وجدهما عند أربعة رهط : عند عويمر أبى الدرداء ، وعند سلمان الفارسى ، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إنه عاشر عشرة فى الجنة** » .

وقال أبو إسحاق السبيعى : قال عبد الله : علماء الأرض ثلاثة ؛ فرجل بالشام ، وآخر بالكوفة، وآخر بالمدينة. فأما هذان فيسألان الذى بالمدينة، والذى بالمدينة لايسألهما عن شىء.

وقيل لعلى بن أبى طالب : حدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : عن أيهم ؟ قالوا : عن عبد الله بن مسعود ، قال : قرأ القرآن وعلم السنة ثم انتهى وكفى بذلك ، قالوا : فحدثنا عن حذيفة ، قال : أعلم أصحاب محمد بالمنافقين ، قالوا : فأبو ذر ؟ قال : كنيف[1] ملىء علماً عجن فيه ، قالوا : فعمار ؟، قال : مؤمن نسى إذا ذكرته ذكر خلط الله الإيمان بلحمه ودمه ليس للنار فيه نصيب ، قالوا : فأبو موسى ؟ قال : صبغ فى العلم صبغة ، قالوا : فسلمان ؟، قال : علم العلم الأول والآخر ، بحر لا ينزح ، هو منا أهل البيت ، قالوا : فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين ؟، قال : إياها أردتم ، كنت إذا سئلت أعطيت ، وإذا سكت ابتديت .

وقال مسروق : شافهت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهى إلى ستة : إلى على وعبد الله وعمر وزيد بن ثابت وأبى الدرداء وأبى بن كعب ، ثم شافهت الستة فوجدت علمهم ينتهى إلى على وعبد الله .

(١) كنيف : حظيرة من خشب أو شجر تتخذ للإبل والغنم تقيها الريح والبرد .

وقال مسروق : جالست أصحاب محمد ﷺ وكانوا كإخاذ الإخاذ[1] يروى الراكب ، والإخاذ يروى الراكبين ، والإخاذ العشرة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ، وإن عبد الله من تلك الإخاذ .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « **بينا أنا نائم أُتيت بقدح لبن فشربت منه حتى أرى الرى يخرج من أظفارى ، ثم أُعطيت فضلى عمر** » ، فقالوا : فما أَوَّلْتَ ذلك يا رسول الله ؟ قال : « **العلم** »[2] .

وقال عبد الله : إنى لأحسب أن عمر بن الخطاب قد ذهب بتسعة أعشار العلم .

وقال عبد الله : لو أن علم عمر بن الخطاب وضع فى كفة الميزان ووضع علم أهل الأرض فى كفة لرجح علم عمر .

وقال حذيفة بن اليمان : كأن علم الناس مع علم عمر دُسٌّ[3] فى حجر .

وقال الشعبى : قضاة هذه الأمة أربعة عمر وعلى وزيد وأبو موسى .

وقال قبيصة بن جابر[4] : ما رأيت رجلاً قط أعلم بالله ولا أقرأ لكتاب الله ولا أفقه فى دين الله من عمر .

وقال على : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن ليس لى علم بالقضاء ، فقلت : إنك ترسلنى إلى قوم يكون فيهم الأحداث وليس لى علم بالقضاء ، قال : فضرب فى صدرى وقال : « **إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك** » ، قال : فما شككت فى قضاء بين اثنين بعده[5] .

وفى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبى معيط فمر بى رسول الله ﷺ وأبو بكر ، فقال لى : « **يا غلام هل من لبن ؟** » ، فقلت : نعم ولكنى مؤتمن ، قال : « **فهل من شاة لم ينزل عليها الفحل ؟** » ، قال : فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه فى إناء فشرب وسقى أبا بكر ، ثم قال للضرع : « **اقلص** » فقلص ، قال : ثم أتيته بعد هذا فقلت : يا رسول الله علمنى من هذا القول ، فمسح رأسى ، وقال :

---

(١) الإخاذ : مفردها : الإخاذة : وهو الغدير الصغير .

(٢) صحيح . البخارى فى العلم . باب فضل العلم [٢١٦/١] وفى مواضع أخرى . ومسلم فى فضائل الصحابة . باب فضائل عمر [١٦] .

(٣) الدُّسَّة : لُعْبة لصبيان الأعراب .

(٤) قبيصة بن جابر بن وهب الأسدى ، أبو العلاء ، الكوفى ، ثقة من الثانية ، مخضرم ، مات سنة ٩٩ هـ [تقريب ١٢٢/٢] .

(٥) صحيح . أبو داود فى الأقضية . باب كيف القضاء [٣٥٨٢] وابن ماجه فى الأحكام . باب ذكر القضاة [٢٣١٠] وأحمد فى المسند [٨٨/١ ، ١٣٦ ، ١٥٠ ، ١٥٦] .

« يرحمك الله إنك عليم معلم »[1] .

وقال عقبة بن عامر : ما رأى أحداً أعلم بما أُنزل على محمد مِنْ عبد الله ، فقال أبو موسى : إن تقل ذلك فإنه كان يسمع حين لا نسمع ويدخل حين لا ندخل .

وقال مسروق : قال عبد الله : ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ، ولو أنى أعلم أن رجلاً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل والمطايا لأتيته .

وقال عبد الله بن بريدة فى قوله عز وجل : ﴿ **حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا** ﴾ [محمد : ١٦] ، قال : هو عبد الله بن مسعود[2] . وقيل لمسروق : كانت عائشة تحسن الفرائض ؟ قال : والله لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض .

وقال أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً . وقال شهر بن حوشب : كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ ابن جبل نظروا إليه هيبة له . وقال على بن أبى طالب : أبو ذر وعاء ملىء علماً ، ثم وكىء عليه فلم يخرج منه شىء حتى قبض . وقال مسروق : قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين فى العلم . ولما بلغ أبا الدرداء موت عبد الله بن مسعود قال : أما إنه لم يخلف بعده مثله .

وقال أبو الدرداء : إن من الناس من أوتى علماً ولم يؤت حلماً ، وشداد بن أوس ممن أوتى علماً وحلماً .

ولما مات زيد بن ثابت قام ابن عباس على قبره وقال : هكذا يذهب العلم .

وضم رسول الله ﷺ ابن عباس وقال : « **اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب** »[3] ، وقال محمد بن الحنفية[4] لما مات ابن عباس : لقد مات ربانى هذه الأمة . وقال عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة : ما رأيت أحداً أعلم بالسنة ولا أجلد رأياً ولا أثقب نظراً حين ينظر من ابن عباس .

وكان عمر بن الخطاب يقول له : قد طرأت علينا عضل[5] أقضية أنت لها ولأمثالها ،

---

(١) صحيح . أحمد فى المسند [٣٧٩/١ ، ٤٦٢] .

(٢) المراد من الآية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لا عبد الله وحده .

(٣) صحيح . البخارى فى فضائل الصحابة . باب ذكر ابن عباس [١٢٦/٧] وابن ماجه فى المقدمة . باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ [١٦٦] .

(٤) محمد بن على بن أبى طالب الهاشمى ، أبو القاسم بن الحنفية ، المدنى ، ثقة ، عالم ، من الثانية ، مات بعد الثمانين [تقريب ١٩٢/٢ ، تاريخ الثقات ١٤٨٧] .

(٥) عضل : داءٌ عُضَالٌ ، وأمر عُضَالٌ أى شديد أعيا الأطباء وأمر معضل لا يُهتدى لوجهه .

ثم يقول عبيد الله : وعمر عمر فى جده وحسن نظره للمسلمين .

وقال عطاء بن أبى رباح : ما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقهاً وأعظم جفنة ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر ، يصدرهم كلهم فى وادٍ واسع ، وكان عمر بن الخطاب يسأله مع الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ودعا له رسول الله ﷺ أن يزيده الله علماً وفقهاً .

وقال عبد الله بن مسعود : لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عشره منا رجل . أى ما بلغ عشره .

وقال ابن عباس : ما سألنى أحد عن مسألة إلا عرفت أنه فقيه أو غير فقيه ، وقيل له : أنى أصبت هذا العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول ، وكان يسمى البحر من كثرة علمه . وقال طاوس[1] : أدركت نحو خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ إذ ذكر لهم ابن عباس شيئاً فخالفوه لم يزل بهم حتى يقررهم . وقال الأعمش : كان ابن عباس إذا رأيته قلت : أجمل الناس ، فإذا تكلم قلت : أفصح الناس ، فإذا حدث قلت : أعلم الناس . وقال مجاهد : كان ابن عباس إذا فسر الشيء رأيت عليه النور .

وقال ابن سيرين : كانوا يرون أن الرجل الواحد يعلم من العلم ما لا يعلمه الناس أجمعون . قال ابن عون : فكأنه رآنى أنكرت ذلك قال : فقال : أليس أبو بكر كان يعلم ما لا يعلم الناس ، ثم كان عمر يعلم ما لا يعلم الناس ؟! وقال عبد الله بن مسعود : لو وضع علم أحياء العرب فى كفة وعلم عمر فى كفة لرجح بهم علم عمر ، قال الأعمش : فذكروا ذلك لإبراهيم فقال : عبد الله إن كنا لنحسبه قد ذهب بتسعة أعشار العلم .

وقال سعيد بن المسيب : ما أعلم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر ابن الخطاب ، وقال الشعبى : قضاة الناس أربعة .. عمر وعلى وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى .

وكانت عائشة رضى الله عنها مقدمة فى العلم بالفرائض والسنن والأحكام والحلال والحرام والتفسير . قال عروة بن الزبير : ما جالست أحداً قط أعلم بقضاء ولا بحديث الجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا طب من عائشة . وقال عطاء : كانت عائشة أعلم الناس وأفقه الناس .

وقال البخارى فى تاريخه : روى العلم عن أبى هريرة ثمانمائة رجل ما بين صاحب وتابع . وقال عبد الله بن مسعود : إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد

---

(١) طاوس بن كيسان اليمانى ، أبو عبد الرحمن ، الحميرى مولاهم ، الفارس ، يقال : اسمه ذكوان ، وطاوس لقب . ثقة فقيه ، فاضل ، من الثالثة مات سنة ١٠٦ هـ ، وقيل : بعد ذلك [تقريب ١/٣٧٧]

فاصطفاه وبعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلوا وزراءه . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ [النمل : ٥٩] ، قال : هم أصحاب محمد ﷺ .

وقال ابن مسعود : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحى لا يؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ، أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لإقامة دينه وصحبة نبيه فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقد أثنى الله سبحانه عليهم بما لم يثنه على أمة من الأمم سواهم فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أى عدولاً خياراً ﴿ .. لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالله ﴾ [آل عمران : ١١٠] . وقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله ورِضْوَانًا ، سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُم فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُم فِى الإِنْجِيلِ ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وهم محمد وأصحابه .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل »[1] ، وقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

وقال مالك عن نافع : كان ابن عباس وابن عمر يجلسان للناس عند قدوم الحاج وكنت أجلس إلى هذا يوماً وإلى هذا يوماً ، فكان ابن عباس يجيب ويفتى فى كل ما يسأل عنه وكان ابن عمر يرد أكثر مما يفتى .

قال مالك : وسمعت أن معاذ بن جبل يكون أمام العلماء بِرَثْوة ، يعنى يكون أمامهم يوم القيامة برمية حجر .

وقال مالك : أقام ابن عمر بعد النبى ﷺ ستين سنة يفتى الناس فى الموسم وغير ذلك

---

(١) حسن . ابن ماجه فى الزهد . باب صفة أمة محمد ﷺ [٤٢٨٨] وأحمد فى المسند [٤/٤٤٧ ، ٥/٥] .

وكان من أئمة الدين ، وقال عمر لجرير : يرحمك الله إن كنت لسيداً فى الجاهلية فقيهاً فى الإسلام . وقال محمد بن المنكدر : ما قدم البصرة أحد أفضل من عمران بن حصين .

وكان لجابر بن عبد الله حلقة فى مسجد رسول الله ﷺ يؤخذ عنه العلم .

والعلم إنما انتشر فى الآفاق عن أصحاب رسول الله ﷺ فهم الذين فتحوا البلاد بالجهاد ، والقلوب بالعلم والقرآن ، فملأوا الدنيا خيراً وعلماً ، والناس اليوم فى بقايا آثار علمهم .

قال الشافعى فى رسالته وقد ذكر الصحابة فعظمهم وأثنى عليهم ثم قال : « وهم فوقنا فى كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم ، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا ، ومن أدركنا ممن نرضى أو حكى لنا عنه ببلدنا صرنا فيما لم نعلم فيه سنة[1] إلى قولهم إن اجتمعوا أو قول بعضهم إن تفرقوا ، وكذلك نقول ولم نخرج من أقاويلهم كلهم » .

وقال الشافعى : وقد أثنى الله على الصحابة فى التوراة والإنجيل والقرآن وسبق لهم على لسان نبيهم ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم .

وقال أبو حنيفة : « إذا جاء عن النبى ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة نختار من قولهم ولم نخرج عنه » .

وقال ابن القاسم : « سمعت مالكاً يقول : لما دخل أصحاب رسول الله ﷺ الشام نظر إليهم رجل من أهل الكتاب فقال : ما كان أصحاب عيسى ابن مريم الذين قطعوا بالمناشير وصلبوا على الخشب بأشد اجتهاداً من هؤلاء » .

وقد شهد لهم الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى « **بأنهم خير القرون على الإطلاق** »[2] كما شهد لهم ربهم تبارك وتعالى بأنهم خير الأمم على الإطلاق .

وعلماؤهم وتلاميذهم هم الذين ملأوا الأرض علماً ، فعلماء الإسلام كلهم تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وهلم جرا ، وهؤلاء الأئمة الأربعة الذين أطبق علمهم الأرض شرقاً وغرباً هم تلاميذ تلاميذهم ، وخيار ما عندهم ما كان عن الصحابة ، وخيار الفقه ما كان عنهم ، وأصح التفسير ما أخذ عنهم .

وأما كلامهم فى باب معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وقضائه وقدره ففى أعلى المراتب ، فمن وقف عليه وعرف ما قالته الأنبياء عرف أنه مشتق منه مترجم عنه ، وكل علم نافع فى الأمة مستنبط من كلامهم ومأخوذ عنهم ، وهؤلاء تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم قد أطبقت تصانيفهم وفتاويهم الأرض ، فهذا مالك جمعت فتاويه فى عدة أسفار ، وكذلك أبو حنيفة ،

---

(١) فى المخطوطة « صاروا فيما لم يعلموا فيه سنة » والأصوب ما أثبتناه .

(٢) روى أكثر من حديث صحيح فى شهادة النبى للصحابة بأنهم خير القرون فقد قال ﷺ « **خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ..** » وقال : « **وخير الناس قرنى ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم يجىء قوم لا خير فيهم** » وقال أيضا « **خير الناس القرن الذى أنا فيه ، ثم الثانى ، ثم الثالث** » صحيح الجامع للألبانى [٣٢٨٨ ، ٣٢٩٣ - ٣٢٩٥] .

وهذه تصانيف الشافعى تقارب المائة ، وهذا الإمام أحمد بلغت فتاويه وتآليفه نحو مائة سِفر ، وفتاويه عندنا فى نحو عشرين سِفراً ، وغالب تصانيفه بل كلها عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين ، وهذا علامتهم المتأخر « شيخ الإسلام ابن تيمية » جمع بعض أصحابه فتاواه فى ثلاثين مجلداً ورأيتها فى الديار المصرية ، وهذه تآليف أئمة الإسلام التى لا يحصيها إلا الله ، وكلهم من أولهم إلى آخرهم يقر للصحابة بالعلم والفضل ، ويعترف بأن علمه بالنسبة إلى علومهم كعلومهم بالنسبة إلى علم نبيهم .

كعب الأحبار وبعض الأخبار

وفى « **الثقفيات** » حدثنا قتيبة بن سعيد ، عن سعيد بن عبد الرحمن المعافرى ، عن أبيه : أن كعباً رأى حبر اليهود يبكى ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت بعض الأمر ، فقال كعب : أنشدك الله لئن أخبرتك ما أبكاك لتصدقنى ؟ قال : نعم ، قال : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : رب إنى أجد خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلون الأعور الدجال فاجعلهم أمتى ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم ، قال كعب : فأنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : يارب إنى أجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا : نفعله إن شاء الله ، فاجعلهم أمتى ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟، قال الحبر : نعم . فقال كعب : فأنشدك الله أتجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : يارب إنى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شَرَفٍ كبر الله وإذا هبط حمد الله ؛ الصعيد طهورهم والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء ، غراً محجلين من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم . قال كعب : فأنشدك الله أتجد فى كتاب الله أن موسى نظر فى التوراة فقال : يارب إنى أجد أمة مرحومة ضعفاء أورثتهم الكتاب فاصطفيتهم لنفسك فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحداً منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتى ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله أتجد فى كتاب الله أن موسى نظر فى التوراة فقال : يارب إنى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم ، يصفون فى صلاتهم كصفوف الملائكة ، أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل ، لا يدخل النار منهم أحد إلا من برىء من الحسنات مثل ما برىء الحجر من ورق الشجر . قال موسى : فاجعلهم أمتى ، قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟ قال الحبر : نعم .

فلما عجب موسى من الخير الذى أعطى الله محمداً وأمته قال : ليتنى من أصحاب محمد ،

فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] الآية . ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩] ، ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ ﴾ [الأعراف : ١٤٥] الآية ، قال : فرضى موسى كل الرضا[١] .

وهذه الفصول بعضها فى التوراة التى بأيديهم وبعضها فى نبوة إشعياء وبعضها فى نبوة غيره .

و « التوراة » أعم من التوراة المعينة ، وقد كان الله سبحانه كتب لموسى فى ﴿ الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ فلما كسرها رفع منها الكثير وبقى خير كثير ، فلا يقدح فى هذا النقل جهل أكثر أهل الكتاب به فلا يزال فى العلم الموروث عن الأنبياء شيء لا يعرفه إلا الآحاد من الناس أو الواحد ، وهذه الأمة على قرب عهدها بنبيها ، فى العلم الموروث عنه ، ما لا يعرفه إلا الأفراد القليلون جداً من أمته وسائر الناس منكر له وجاهل به .

وسمع كعب رجلاً يقول : رأيت فى المنام كأن الناس جمعوا للحساب فدعى الأنبياء فجاء مع كل نبى أمته ورأيت لكل نبى نورين ولكل من اتبعه نوراً يمشى بين يديه ، فدعى محمد ﷺ فإذا لكل شعرة فى رأسه ووجهه نور ، ولكل من اتبعه نوران يمشى بهما ، فقال كعب : من حدثك بهذا ؟ قال : رؤيا رأيتها فى منامى ، قال : أنت رأيت هذا فى منامك ؟ قال : نعم ، قال : والذى نفسى بيده إنها لصفة محمد وأمته وصفة الأنبياء وأممهم لكأنما قرأتها من كتاب الله .

وفى بعض الكتب القديمة أن عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه قيل له : يا روح الله ! هل بعد هذه الأمة أمة ؟ قال : نعم ، قيل : وأية أمة ؟ قال : أمة أحمد ، قيل : يا روح الله ! وما أمة أحمد ؟ قال : علماء حكماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم باليسير من العمل ، يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله .

وقال كعب : « علماء هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل » وفيه حديث مرفوع لا أعرف حاله[٢] .

ثم نقول : وما يدريكم معاشر المثلثة وعباد الصُّلبان وأمة اللعنة والغضب بالفقه والعلم ؟

---

(١) أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء عن كعب الأحبار [٥/٣٨٤ - ٣٨٦] وفى إسناده رشدين بن سعد أبو الحجاج المصرى ، ضعيف وقال النسائى : متروك ، وقال ابن يونس : كان صالحا فى دينه ، فأدركته غفلة الصالحين ، فخلط فى الحديث ، من السابعة ، مات سنة ١٨٨ هـ ، وله ثمان وسبعون سنة [تقريب ١/٢٥١ ، الضعفاء والمتروكين ٢٢٠] .

(٢) حديث « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » قال السيوطى : لا أصل له . ولا يعرف فى كتاب معتبر . الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة للسيوطى [٢٩٣] والفوائد للشوكانى [٢٨٦] .

ومسمى هذا الاسم حيث تسلبونه أصحاب محمد الذين هم وتلاميذهم كأنبياء بنى إسرائيل ، وهل يميز بين العلماء والجهال ويعرف مقادير العلماء إلا من هو من جملتهم ومعدود فى زمرتهم ؟

فأما طائفةٌ شبه الله علماءهم بالحمير التى تحمل أسفاراً ، وطائفةٌ علماؤها يقولون فى الله ما لا ترضاه أمة من الأمم فيمن تعظمه وتجله ، وتأخذ دينها عن كل كاذب ومفتر على الله وعلى أنبيائه ، فمثلها مثل عريان يحارب شاكى السلاح[1]، ومن سقف بيته زجاج وهو يزاحم أصحاب القصور بالأحجار ، ولا يستكثر على من قال فى الله ورسوله ما قال ، أن يقول فى أعلم الخلق إنهم عوام .

فَلْيَهْنَ أمة الغضب علم المشنا والجمارا المكون منهما التلمود[2] وما فيهما من الكذب على الله وعلى كليمه موسى . وما يحدث لهم أحبارهم وعلماء السوء منهم كل وقت ، ولتهنهم علوم دلتهم على أن الله ندم على خلق البشر حتى شق عليه ، وبكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة ، ودلتهم على أن يناجوا فى صلاتهم بقولهم : « يا إلهنا انتبه من رقدتك كم تنام » . ينخونه حتى يتنخى لهم[3] ويعيد دولتهم .

ولتهن أمة الضلال علومهم التى فارقوا بها جميع شرائع الأنبياء وخالفوا بها المسيح خلافاً تتحققه علماؤهم فى كل أمره كما سيمر بك .

وعلومهم التى قالوا بها فى رب العالمين ما قالوا مما كادت السموات تنشق منه والأرض تنفطر والجبال تنهد لولا أن أمسكها الحليم الصبور .

وعلومهم التى دلتهم على التثليث ، وعبادة خشبة الصليب والصور المدهونة بالسيرقون والزنجفر ، ودلتهم على قول عالمهم « أفرايم » : أن اليد التى جبلت طينة آدم هى التى علقت على الصلبوت ، وأن الشبر الذى ذرعت به السموات هو الذى سمر على الخشبة . وقول عالمهم المشهور «كيرلس»[4]: «من لم يقل إن مريم والدة الله فهو خارج عن ولاية الله».

---

(١) شاكى السلاح : تامّ السلاح كامل الاستعداد .

(٢) فى المخطوطة «علم المشنا والتلمود وما فيهما ..» والأصح ما أثبتناه . لأن التلمود – كما سبق – مكون من المشنا والجمارا .

(٣) يقال : نَخْنَخَ فلاناً : زجره ونَحَّاه .

(٤) فى المخطوطة «عريقودس» والصواب ما أثبتناه . وقد تصدى كيرلس لمقولة نسطور ، مما أدى إلى انعقاد مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م وسيأتى الحديث عنه تفصيلاً فى المجامع النصرانية . [انظر الخريدة **النفيسة** فى تاريخ الكنيسة ٤٥٧/١ – ٤٩٥] .